



أنا وغريفت والسينما

سلسلة
الشباب
61

تأليف: ليليان غيث
ترجمة: عدنان مدانات

حكاية كتاب سينمائي

عدنان مدانات

صدر لي كتاب مترجم في السينما منذ نحو ثلاثة أعوام بعنوان "السينما، غريفت وأنا". وحتى الآن لم اعثر على تغطية إعلامية أو نقدية حوله في الصحف العربية. غير أن كل من اطلع على ملابسات ترجمة ونشر هذا الكتاب من الاصدقاء، ظل يلح عليّ أن اكتب عن هذه الملابسات على اعتبار أنها حكاية مثيرة، بل فيلم سينمائي بحد ذاتها.

عشقت هذا الكتاب منذ صدر في أواسط ستينيات القرن العشرين واحتفظت بنسخته معي أينما تنقلت في البلدان. وفي العام ١٩٨١، وكنت اقيم في بيروت، شرعت بترجمة هذا الكتاب ونشرت الفصول المترجمة منه خلال عامين على حلقات في المجلة السينمائية الفصلية "الحياة السينمائية" التي يدير تحريرها الشاعر السوري بندر عبد الحميد.

في ربيع عام ١٩٨٢ غادرت منزلي في بيروت في رحلة بعيدة لحضور مهرجان سينمائي. وكنت قد تركت على مكتبي في المنزل نسخة الكتاب مفتوحة على آخر صفحة مترجمة وكان نص الترجمة لا يزال وسط آلة الطباعة. خلال وجودي في المهرجان اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان واحتل بيروت، وهكذا لم يكن بمقدوري العودة إليها وإلى منزلي.

عدت إلى بيروت ثانية فقط بعد عشرين عاما تحديدا. عدت إلى بيروت مباشرة من مدينة الإسماعيلية في مصر حيث كنت احضر مهرجان السينما التسجيلية. كان الشاعر بندر عبد الحميد احد ضيوف هذا المهرجان، وهو سألني ذات امسية إن كنت افكر باستكمال ترجمة كتاب "السينما، غريفت وأنا" والذي يعتبره كتابا جميلا جدا ولا يزال يتذكره بحب. وكان بندر عبد الحميد نفسه قد تكرم علي و زودني قبل ذلك ببضعة أعوام بنسخ من اعداد المجلة التي نشرت فيها الفصول المترجمة من الكتاب. نفيت مثل هذا الإمكانية لاستحالة الحصول على نسخة من هذا الكتاب القديم جدا، خاصة وإنني خلال عام كامل تقريبا حاولت البحث عن نسخة منه في المكتبات العامة وحتى عبر الشبكة العنكبوتية،

وفي النتيجة أعلنت استسلامي وألغيت الفكرة . راودتني أثناء وجودي في بيروت مشاعر متناقضة وخضت في الايام الخمسة الاولى من إقامتي فيها صراعا مريرا مع رغبة، ملحة ومقلقة، اوحت إلي بزيارة منزلي القديم. في اليوم السادس خرجت في جولة في المنطقة الحديثة المعاد بناؤها من وسط بيروت برفقة ضيف زميل آخر، هو مخرج شاب من الإمارات يزور بيروت للمرة الاولى. جلنا معا في الشوارع الحديثة لبعض الوقت إلى أن وجدتي فجأة اقترح عليه اصطحابه إلى منطقة سكنية تقليدية فوافق فورا. وفي الحقيقة فقد استخدمته ذريعة لتشجيعي واستدراجته إلى حيث كان منزلي قبل عشرين عاما. وقفت امام المبنى الذي عشت فيه سنوات وقلبي يخفق بشدة متزايدة، غير أنني لم أجروا علي عبور مدخله نحو شقتي، خاصة أنني علمت من البواب أن من يقطنه الآن هم المالكون الجدد والذين سبق لهم ان احتلوا المنزل إذ كانوا من معشر المهجرين ثم استملكوه بحكم الامر الواقع. بعد ذلك تابعت طريقي مع رفيق رحلتي في شوارع الحي ، إلى أن وجدت نفسي على حين غرة امام متجر صغير للالبسة النسائية تملكه صاحبة منزلي القديم. استقبلتني صاحبة المتجر بكل ترحاب، وفي نهاية اللقاء طلبت مني ان اذهب إلى منزلي القديم وإن اطلب من سكانه ما تركته لي من امانة عندهم قبل ان تبعهم المنزل. وما هي الامانة؟ سألتها بفضول شديد. لا اذكر ، اجابتنني، ثم تابعت: حقيبة سفر كبيرة وفيها اشياء.

صدر الكتاب ضمن سلسلة " الفن السابع " من منشورات المؤسسة العامة للسينما / وزارة الثقافة في دمشق. وهذا تعريف موجز بالكتاب:

تعتبر الممثلة ليليان غيش من أولى نجومات السينما العالمية منذ العقد الأول من القرن العشرين. وهي مع شقيقتها دوروثي ، كانتا أول ثنائي شقيق في تاريخ السينما .

وقد عملت ليليان غيش كممثلة في السينما منذ طفولتها التي ترافقت مع مرحلة طفولة السينما ذاتها، وهكذا نما الاثنان بالتوازي. واكتسبت ليليان خبرة شديدة في كافة فروع عمليات إخراج الافلام بحيث أنها أصبحت في مرحلة نضجها مخرجة سينمائية إضافة إلى استمرار عملها كممثلة.

وكانت ليليان غيش قد نشرت الجزء الأول من مذكراتها في الستينات تحت عنوان : " السينما ، غريفت وأنا " . ولاقى الكتاب في حينه نجاحا مذهلا . وقد صدر لها قبل وفاتها عن عمر يناهز التسعين عاما كتاب ثان تكمل فيه مذكراتها عن حياتها في السينما، تلك الحياة التي وصفتها بدقة وبحساسية في كتابها الأول. وتدرج هذه المذكرات من حيث المبدأ تحت عنوان السيرة الذاتية . ولكن ميزة هذه المذكرات تكمن في أن سيرة الفنانة الذاتية ترتبط على نحو وطيد بالسيرة الخاصة بالمخرج دافيد وورك غريفت والسيرة الخاصة بولادة وتطور فن السينما . وهي الولادة التي عاصرتها منذ طفولتها وعاشتها يوما إثريوم عبر تجربتها الطويلة مع واحد من أكبر عابرة السينما العالمية وهو دافيد وورك غريفت المعترف به عالميا باعتباره أب السينما. نتعرف من خلال هذه المذكرات المكتوبة بوعي و بخبرة فنانة لم تعمل فقط في السينما كممثلة بل ساهمت في جميع فروعها وتعلمتها واستوعبتها، مما ساعدتها بعد أن تقدم بها العمر في أن تؤرخ عبر مذكراتها عن سيرتها الذاتية لمراحل تطور ولتفاصيل اكتشافات عناصر لغة أو وسائل التعبير السينمائية . و نتعرف من خلال هذه المذكرات بشكل خاص ووثيق على تجربة غريفت ورافقها خطوة خطوة . وملتقي على صفحاتها مع الكثير من الأسماء التي صنعت مجد السينما ومنها النجمة العالمية الأولى ماري بيكفورد التي أسست في عام ١٩١٩ مع زوجها دوغلاس فيربانكس و شارلي شابلين و دافيد وورك غريفت شركة " يوناييتد آر تيستس " الشهيرة.

من ناحية، يمكن قراءة هذه الفصول المختارة من مذكرات ليليان غيش للتعرف على جزء هام من تاريخ السينما الأمريكية فنا وصناعة، ومن ناحية ثانية يمكن قراءتها كسيرة ذاتية كتبت بروح أدبية شعرية عالية وبعاطفة إنسانية شديدة التأثير.

أجبتها مستغربا: ولكن مضى على هذا عشرون عاما ، أيعقل أن يحتفظوا بالحقيبة؟ ردت بحزم: لقد وعدوني. ثم أعطتني رقم الهاتف كي أتصل بهم.

مساء اليوم ذاته أكد أصحاب المنزل لي أثناء الاتصال الهاتفية أنهم يحتفظون بالحقيبة وأن بمقدوري القدوم صباح اليوم التالي لاستلامها.

ليلتها لم استطع النوم وبقيت أنتظر طلوع النهار بفارغ صبر. وكنت قد تواعدت مع صديق لبناني لاصطحابي في الصباح بسيارته لجلب الحقيبة. في الثامنة صباحا وقفت مع صديقي أمام باب شقتي القديمة الواقعة في الطابق الثامن. قرع صديقي جرس الباب ووقفت خلفه أنتظر. خرج إلينا صاحب المنزل، ودون أن يدعونا للدخول استمهلنا للحظات وأخرج من خلف الباب حقيبة سفر قديمة عاشت برفقتي سنوات طوال ورحلت معي إلى أكثر من بلد. بدا لي مظهر الحقيبة بائسا، كانت قذرة ممزقة الأوصال ، استلقت امامي على الأرض بدون مبالاة. أهذا كل شيء؟ سألت الرجل. نعم، قال لي، قبل أن يغلق الباب خلفه.

سارعت إلى الحقيبة وفتحتها بلهفة. كانت ممتلئة بكتب ومجلات وأوراق ولا شيء آخر. كتب ومجلات مهترئة بفضل أنياب القوارض و تفوح منها رائحة العفونة نتيجة التخزين في مكان رطب مغلق. قلت لصديقي بحزم: خذني إلى أقرب حاوية للقمامة كي نلقي الحقيبة ومحتوياتها فيها. رد عليّ بحزم مقابل: نحن في لبنان لا نلقي الكتب في الحاوية. سأخذك إلى المكتب وهنا بإمكانك أن تتفحص المحتويات علك تجد فيها ما يفيدك.

عندما فتحنا الحقيبة بعد أن ألقيناها علي أرض شرفة مكتبه سارعت إلى بعثرة محتوياتها وصرت أاملها بإحباط متزايد نتيجة خيبة الأمل، في حين كان بعض المتواجدين في المكتب يتصفحون الكتب يستاذنونني في أخذ ما يعجبهم من كتب.

في قاع الحقيبة تحديدا رقد كتاب أخير وحيدا. أعادت إلي رؤية غلافه الروح وملاتني بهجة. إنه الكتاب الذي بحثت عنه طويلا " السينما، غريفت وأنا". وكان الكتاب الوحيد من بين كل محتويات الحقيبة الذي عاد معي إلى الوطن.

كان أول ما باشرت فيه لدى عودتي إلى مكنتي في مقر عملي هو الشروع في ترجمة الكتاب. تابعت الترجمة يوميا بكل حماس ولهفة لإنجازه بأسرع وقت ممكن. وما أن أنهيت السطر الأخير من الترجمة، وبدون أن أكبد نفسي عناء مراجعتها، بإدرت بالاتصال بالصديق بندر عبد الحميد في دمشق وبلغته بالمفاجأة السارة ووعدته بإرسال مادة الكتاب إليه بالبريد الإلكتروني فور إغلاق سماعة الهاتف.